العامل والممثل والدور العاملي والشخصية في السيميائيات القاموس المعقلن في نظرية اللغة

الأستاذ رشيد بن مالك
جامعة أبي بكر بلقايد/ تلمسان

نواصل هذه الدراسة التي تأتي امتدادا لترجمة سابقة (الخطاطة السردية) للتدقيق في المفاهيم الأساسية المعتمدة في السيميائيات/ مدرسة باريس. وقد اقتصرنا في ترجمتنا على القاموس الصادر في 1979 بهاشيت/ باريس. وتكمن الغاية من الارتكاز على هذا النوع من البحث، الوقوف على الترجمة المباشرة للمصطلح والمفاهيم التي يحيل عليها. ونحونا هذا النحو لقناعتنا بأن الصعوبات التي تواجه الباحث في المؤسسة العلمية العربية والاختلافات الكبيرة في ترجمة المصطلح السيميائي آتية لا محالة من الاستغناء عن المصادر الأساسية التي أطرت البحث السيميائي مما أثر سلبا على استيعاب وتمثل المصطلح في أصوله. فتجلى هذا التباين بشكل صريح في افتقاد المشهد السيميائي العربي إلى خطاب علمي يتوحد فيه المصطلح. وبدت تداعيات هذا الإشكال في هذه الخطابات السيميائية العربية المتضاربة في رؤاها ومفاهيمها ومصطلحيتها.

1. العامل(Actant)

- يمكن أن نتصور **العامل** من خلال الشخص الذي يقوم بـالفعل* أو يتلقاه، وذلك بقطع النظر عن كل تحديد آخر. في استشهادنا بـ ل.تينيير L.Tesnière الذي استعرنا منه هذا المصطلح، فإن « العوامل هي الكائنات أو الأشياء التي تسهم، بأية صفة كانت، وبأية طريقة، وحتى باعتبارها شخصيات ثانوية، وبالطريقة الأكثر سلبية، في السيرورة». من هذا المنظور، يطلق العامل على نوع من الوحدة* التركيبية ذي طابع شكلي خالص، وسابق لكل استثمار* دلالي و/أو إيديولوجي.

- يحيل مصطلح العامل على تصور محدد للتركيب* يُمفصل الملفوظ* البسيط إلى وظائف*(مثل الفاعل والمفعول والمسند) بمعزل عن تحققها في وحدات نظمية(مثل

النظم الاسمية والفعلية)، و يَعْتَبِرُ المسندَ* نواة للملفوظ. وهذا يوضح جيدا أن العوامل هي بمثابة العناصر- المنتهيات التي تفضي إليها العلاقة المتمثلة في الوظيفة. ينبغي أن يُؤَوَّلَ مفهوم العامل أيضا في إطار نحو الحالات (فيلمور Fillmore) حيث يمكن أن تعتبر كل حالة تمثيلا لوضعية عاملية. ومن ثم، يتقدم **النحو العاملي** ذو التوجه السيميائي كصياغة في غاية التجريد لنحو الحالات: ولما كان واقعا في المستوى الأعمق* وغير خاضع لشكل لساني جملي، فإنه كفيل بإبراز تنظيم الخطابات السردية- على مستوى التركيب* السردي(المسمى بالتركيب السطحي)- بفضل المقولات* التركيبية الوظيفية(فاعل، موضوع، مسند، الخ.) التي تبرزها من أجل بنائه: من هذه الزاوية، يتميز عن الأنحاءالمقولية(التي تشتغل على الأقسام المورفولوجية) أو الأنحاء(جمع نحو/المترجم) النظمية(التي ترتكز على الأقسام التوزيعية).

- يعوض مفهوم العامل، لا سيما في السيميائية الأدبية، تعويضا مفيدامصطلح الشخصية*، وكذا «الشخصية المأسوية»(ف.بروبV.Propp) لأنه يغطي ليس فقط الكائنات الإنسانية، بل الحيوانات والأشياء أو المفاهيم أيضا. من جهة أخرى، يظل مصطلح الشخصية غامضا لكونه يناسب، أيضا، جزئيا مفهوم الممثل*(حيث يمكن أن تتحقق تأليفية* العوامل) المحدد بالصورة و/أو الحيز الفارغ الذي تستثمر فيه الأشكال التركيبية والأشكال الدلالية.

- من الناحية التنميطية، نميز داخل الخطاب الملفوظ بين: - **أ)عوامل التبليغ**(أو التلفظ*) وهم الراوي* والمروي له، وأيضا المتكلم* والمخاطب (اللذان يساهمان في بنية الحديث ذي الدرجة الثانية وهو الحوار*). - **ب)عوامل السرد** (أو الملفوظ*): الفاعل/الموضوع، المرسل/المرسل إليه؛ من وجهة نظر نحوية، نقابل هنا **العوامل التركيبية** (المسجلة في برنامج* سردي معين) مثل فاعل الحالة* وفاعل الفعل*، بـ **العوامل الوظيفية** (أو النظمية) التي تختزل الأدوار العاملية* لمسار سردي* محدد؛ مراعاة للبعدين الذين يمكن أن يتم التعرف عليهما في الخطابات، نميز، مثلا، بين الفواعل التداولية* والفواعل العرفانية*(وتظهر هذه الأخيرة إما في تأليفية مع الفواعل التداولية، وإما في شكل ممثلين مستقلين، في حالة المُخبر*مثلا، وإما قابلة للتعرف، على الأقل، بوصفها وضعيات مضمرة مع العامل الملاحظ*). نظرا لتكفل إجراء الصورنة*، على مستوى الدلالية الخطابية،بالعامل، فإن هذا الأخير ينضوي تحت تسمية **الفردي** أو **الثنائي** أو **الجماعي**.

- يمكن أن يُسقَط كل عامل على المربع* السيميائي كما يمكن أن يتمفصل، على هذا النحو، إلى أربع وضعيات عاملية على الأقل(عامل، عامل مضاد،لاعامل، لا عامل مضاد) وعلى أساس هذا التمفصل، يسمى العَامِلُ **عاملا أوليا*** ويتحول إلى **مقولة* عاملية**.

- **إن** العامل، في تنامي الخطاب السردي، كفيل بالاضطلاع ببعض الأدوار العاملية* التي يحددها في آن واحد وضعية العامل في التسلسل المنطقي للسرد(تعريفه التركيبي) واستثماره الجهي*(تعريفه المورفولوجي). هكذا، فإن البطل* لا يكون بهذه الصفة إلا في بعض وضعيات الحكاية: لم يكن كذلك مطلقا قبليا ويمكن ألا يكون كذلك أبدا بعديا.

2. الدور العاملي(Rôle actantiel)

- في توالي المسار السردي*، يمكن أن يدخل العامل في وصلة ببعض الحالات السردية أو **الأدوار العاملية** التي تتحدد في آن واحد تبعا لوضعية العامل داخل المسار السردي*، وبالنظر إلى الاستثمار الجهي* الخاص الذي يتكفل به. هكذا، فإن العامل-الفاعل، مثلا، سيزود، على نحو متعاقب، بجهات مثل إرادة- الفعل، معرفة- الفعل، أو القدرة على الفعل: في هذه الحالة، يضطلع الفاعل بهذه الأدوار العاملية وهي الفاعل بحسب الإرادة، والفاعل بحسب المعرفة، والفاعل بحسب القدرة على الفعل، وتشير هذه الأدوار إلى النقاط المعلمية التي تفضي إلى امتلاك كفاءته* الجهية (السابقة لإنجازه*).من المنظور الاستبدالي، ينبغي أن نعتبر الأدوار العاملية مقولة* (بالمعنى الهيالمسلافي) : وهي تشكل بالفعل مستبدلا تتحدد عناصره بالوضعية التي يمكن أن تحتلها في المسار السردي.

- في حين أن **الوضع العاملي** هو ما يحدد العامل في لحظة معينة من المسار السردي مع إيلاء أهمية لمجموع المسار السردي السابق برمته (سواء كان بارزا أو مفترضا فحسب)، فإن الدور العاملي ليس إلا الفائض الذي يضاف، في نقطة من المسار، إلى ما شكل أصلا العامل على إثر التنامي النظمي للخطاب.

- ترتبط الأدوار العاملية المحددة، على هذا النحو، مورفولوجيا(بمضمونها الجهي) وتركيبيا(بوضعية العامل)، بالتركيب* السردي السطحي. في اقترانها بدور أو أدوار ثيمية* عديدة(تَبْنِي المكون الدلالي للخطاب)،فإنها تسمح، في اشتراكها مع هذه الأخيرة، بتشكيل ممثلين*(كأماكن تلاقي واستثمار البنيات السردية والخطابية).

3. الممثل (Acteur)

- من الناحية التاريخية، حل مصطلح **الممثل** تدريجيا محل الشخصية(أو الشخصية المأسوية)، توخيا للدقة والتعميم(يعد البساط الطائر أو المجتمع التجاري، مثلا، ممثلين) مما فسح المجال لاستعماله خارج المجال الأدبي.

- **إن الممثل**، الذي يعتبر محصلة لإجراءات الفصل* والوصل*(التي تحيل مباشرة إلى هيئة التلفظ*)، وحدة معجمية من نوع اسمي، وبتسجيلها في الخطاب، فإنها كفيلة بتلقي، في لحظة التجلي، استثمارات* التركيب* السردي السطحي والدلالية* الخطابية. ويبدو مضمونه الدلالي الخاص متمثلا أساسا في حضور معنم التفريد* الذي يعمل على إبرازه كصورة* مستقلة من الكون السيميائي. يمكن أن يكون الممثل **فرديا**(بيار) أو **جماعيا**(حشد) أو **صوريا*** (أنثربومورفي أو زومورفي) أو **غير صوري** (القدر).غالبا ما يكون تفريد الممثل محددا بمنحه اسم علم دون أن يشكل هذا، مع ذلك، شرطا لازما لوجوده(قد يتخذ الدور الثيمي* لِلْ»أَبِ»، مثلا، تسمية للممثل): إن الأسمائية* المرتبطة بالدلالية الخطابية مكملة للإمثال*(إجراء من إجراءات التركيب* الخطابي).

- قُرِّب(وقوبل) الممثل في مرحلة أولى بالعامل*. من وجهة نظر مقارنة، لما تكون في حوزتنا مدونة من الحكايات- الروايات، فإننا نلحظ أن عاملا- فاعلا واحدا، مثلا، يمكن أن يُجلى من خلال العديد من الممثلين-البدلاء. غير أن التحليل التوزيعي، المستعمل على هذا النحو، يبرز الطابع الثابت* للعامل دون أن يطلعنا مع ذلك على طبيعة الممثل. ولهذا ينبغي، في آن واحد، الأخذ في الحسبان أن الممثل يتجاوز حدود الجملة ويستدام من خلال العائدات* على امتداد الخطاب(أو مقطوعة خطابية، على الأقل) طبقا لمبدأ التطابق*. يتوقف، حينئذ،عن أن يكون متغيرا* لعامل واحد ثابت للإضطلاع على التوالي بأدوار عاملية* متنوعة؛ ولما كان الخطاب مجرى القيم الدلالية، فإن الممثل كفيل بتلقي دور أو العديد من الأدوار الثيمية* المختلفة.

- هكذا، فإننا توصلنا إلى وضع تعريف أدق للممثل: يعد حيزَ تلاقي واستثمار المكونين التركيبي والدلالي. يستوجب الممثل أن تكون المفردة حاملة على الأقل دورا عامليا وعلى الأقل دورا ثيميا. نضيف أيضا أن الممثل لا يعد فقط حيز استثمار هذه الأدوار، بل هو كذلك المكان الذي تقع فيه هذه التحويلات، ويتمثل الخطاب أساسا في لعبة الامتلاكات والخسارات المتتالية للقيم*.

- نرى إذن بروز،على سطح النص، **بنية*** **ممثلية** ليست في حقيقة الأمر إلا بنية توبولوجية، حيث يتشكل مختلف ممثلي الخطاب في شبكة من الأماكن التي وإن كانت من حيث طبيعتها فارغة، فإنها تعد أحيازا لتجلي البنيات السردية والخطابية.

- من وجهة نظر إنتاج* الخطاب، يمكن أن نميز فاعل التلفظ*، وهو عامل مضمر يفترضه الملفوظ* بشكل منطقي، عن **ممثل التلفظ**: في هذه الحالة، يكون الممثل، مثلا، «بودلير» «Baudelaire «مادام يتحدد بمجموع خطاباته.

4. الشخصية (personnage)

إن مصطلح **الشخصية** الذي استعمل أساسا في الأدب و خُصِّص للأشخاص، عُوِّض تدريجيا بمفهومي- محددين بأكبر صرامة في السيميائية- العامل والممثل.

يتبع